٢٢ أفلام الغرب

بقلم : جيم كيتسيس

شارع مهجور فى الغرب القديم وعند طرفى البلدة يبرز رجلان من جانب الطريق ويقفان وجها لوجه ، وأيديهما متحفزة فوق مسدساتهما المثبتة فى حزام حول وسطيهما ، ثم يتقدمان نحو بعضهما ويرمق كل واحد منهما الآخر فى برود ، ثم يصيح شخص « إن هذا البعد يكفى » ثم يقفان ، ويسود المكان صمت تام ولا تجرى أية حركة ، ثم يلتقطان مسدساتهما وتنطلق منها الرصاصات ويقع أحدهما صريعا على الأرض . ثم يظهر سكان البلدة ويروحون يحدقون فى الجثة بشىء من البلاهة .

هل ثمة شىء أكثر ألفة فى الأفلام من هذا المشهد الصغير؟ إن نوع الفيلم الغربى قديم قدم هوليوود وكقدم السينما نفسها . ومن أقدم الأفلام القصصية فيلم « سرقة القطار الكبرى » الذى أخرجه أدوين س . بورتر . ولقد أنتج هذا الفيلم فى عام ١٩٠٣ وقصة اللصوصية لعب دور البطولة فيها « برونكو بيلى » أندرسون الذى قام بأدوار البطولة فى حوالى ٤٠٠ فيلم من أفلام الغرب ذات البكرة الواحدة التى كانت تصدر أسبوعيًا . وكان « برونكو بيلى » يشبه طرازه سكان المدينة ، ولكنه أجاد كأول نجم فى هوليوود لأفلام الغرب – وذلك حينما تعلم ركوب الخيل . .

وكان فيلم « سرقة القطار الكبرى » بمثابة إعلان عن فترة بعينها وقد « جرت التمثيلية على أساس تقليد تام لعمليات الانقضاض التى كانت تقوم بها عصابات خارجة على القانون فى أقصى الغرب » على أن بعض العلماء لا يوافقون على ذلك ويقولون إن الفيلم أنتج فى إطار « تقليد تام » لفيلم « سرقة عربة البريد » الذى أنتجه فى نفس السنة بريطانيان رائدان من رواد السينما . وعلى أى الحالين فسواء كان الفن تقليدا للحياة أم لا ، فإن عددا لا يعد ولا يحصى من أفلام الغرب قد أنتج وعرض فى جميع أنحاء العالم .

ما هو سر شعبية أفلام الغرب ؟ إن علماء النفس والاجتماع لم يكفوا عن التكهن . ولقد قيل لنا إن السبب هو أن العالم المعاصر يزداد تعقيدا وتحضرا ومن ثم فإن فيلم الغرب يتيح للمشاهد هروبا إلى نوع من حياة أكثر حرية حيث يكون فيه « الرجال رجالا » أو لأن أفلام الغرب عنيفة ، ومن ثم فإنها تشبع حاجة مكبوتة فى أنفسنا جميعا ، وهكذا . إن التكهن من هذا النوع وإن كان ممتعا وقيما فى طريقته ، يخفى حقيقة أساسية وهى أنه فى إطار الغرب قد تم إنتاج عدد كبير من الأفلام الممتعة على مر السنين . أما وأن جماهير النظارة قد وجدت فى هذا الشكل من الأفلام مصدرا قويًّا للابتهاج الجمالى قد لا يمثل الجواب كله عن الأسئلة التى تدور حول شعبية أفلام الغرب ، وهذا أمر لا شك فيه . ومع ذلك فإن هذا التعليل مهم هنا ، لأنه أساسى لأى فهم نقدى لهذا النوع من الأفلام .

* * *

ومما يبعث على الدهشة إن اهتماما يتسم بالنقد لم يوجه إلى نوع الأفلام التى تنتج فى هوليوود إلا أخيرا . . وكانت هذه الأفلام فى أمريكا نفسها ينظر إليها على أنها منتجات آلة تكرر نفسها . ومن المستحيل فى إطار أفلام الغرب وأفلام رجال العصابات أو الأفلام الحربية أو الموسيقية دراسة الأفكار فى عمق وتطوير الممثلين بواقعية

سيكولوجية ، وحتى لو كانت كل هذه الأمور حقيقة ، (وهى ليست كذلك) فإنه يحق لنا أن نسأل : « ماذا بعد ذلك ؟ » هل هذه المعايير تنطبق على جميع أشكال الفن السينمائى ؟ إن هذه البيوريتانية الانتقادية التى يخيم وراءها الرغبة الحزينة إن أمريكا بالنسبة للمسائل الفنية ، يمكن أن تكون كأوربا ، وتستبعد العلاقة الطويلة بين جماهير النظارة مع هوليوود . إن أفلام الغرب فى إطار هذا المنظور تعتبر شكلا تافها محدودا الذى لا ينتج عملا جديًّا إلا قليلا مثل فيلم « الظهيرة الشديدة الحرارة » و « شان » .

لقد بدأ النقاد فى كل من فرنسا وبريطانيا فى غضون العقدين المنصرمين ، وفى مقدمتهم أندريه بازان ، عملية إعادة تقييم واسعة النطاق لأفلام هوليوود مؤكدين على وجه الخصوص حيوية وقوة الأفلام الأمريكية . وكما هو الحال بالنسبة للأدب الأمريكى وموسيقى الجاز ، كان لابد أن يتم اكتشاف فيلم هوليوود بواسطة أوربا قبل أن يكون هذا الفيلم محترما فى وطنه . إن هذا العمى بالنسبة لأفلام الغرب قد يكون مفهوما أحيانا فالأمريكيون ينشئون مع هذه الخرافة الشائعة فى الكتب الهزلية والتليفزيون والإعلانات التجارية وفى السينما . ولعل من المقطوع به أن يصل الأمريكيون إلى نقطة يقفون عندها ويسألون أنفسهم : « إننى أصبحت شابًّا جادًّا الآن ، وعليه فلابد لى أن أترك الأشياء الصبيانية » . وإذا ما استطاع الأمريكيون أن يكبحوا جماح المتعة الحقيقية التى مازالوا يشعرون بها من مشاهدة أفلام مثل أفلام الغرب ، فإنهم يسمون إلى مستوى الفن الراقى لبرجمان وفيلليني وأنتونيونى ثم يشعرون بعد بضع سنين أن جميع الأفلام التى شبوا معها وتمتعوا بها هى فى الواقع شكل من أشكال الفن السينمائى أيضا .

وليس ثمة شك فى أن ثمة شيئا لشعور الأمريكيين بالعداء حيال الفيلم الغربى وهو أنهم قد يشعرون أن هذا الفيلم يشوه الواقع التاريخى والاجتماعى الذى تعرضه . إن استئصال شأفة الهنود الحمر وحرب الإبادة التى يشنها المستعمرون على أهل البلاد الذين بلغوا شأوًا كبيرًا من الحضارة يصبح كفاحا ملحميًّا أو بطوليًّا للشعب المختار ضد

١ ألان لاد فى دور شان

يودع الصبى الذى قام بدوره **براندون ديوالد** فى فيلم « شان »

المصدر : متحف الفن الحديث .

٢ – تصوير رجل يركب حصاناً وهو يجرى بأقصى سرعة .

المصدر : وكالة أنباء يونايتدبرس

المتوحشين . ويصبح أشرار الغرب الغلاظ والقساة أبطالا أسطوريين . وإذا نظر إلى فيلم الغرب من الناحية السياسية فإنه يبدو فيلما قمعيًّا عنصريًّا . ومع ذلك فإن وصف هذه الأفلام على هذا النحو لا يشرح قوة الاستجابة لها من جانب الفنانين السينمائيين أو جماهير النظارة .

* * *

وعلينا إذا أردنا أن نفهم أفلام الغرب ألاَّ يغرب عن بالنا أن كلمات مثل « نوع » هى كلمات تجريبية لأن أنواع الأفلام ليست أنواعًا أدبية على الإطلاق ، وبمعنى آخر . أن التراجيديا أو الكوميديا فى الأدب تدل على كيان فنى محدد جدًّا ، لأننا فى هذه الحالة نعرف ما نتحدث عنه . ولكن فيلمًا بعينه من أفلام الغرب لا يحكى لنا الكثير . قد يكون فيلماً بمثابة ملحمة عن مد خط للسكة الحديد وقد تكون قصة مأساوية عن عبور الحدود وقد يكون كوميديًّا . أو فيلم حركة أو تمثيلية أخلاقية أو قصة انتقام . . إلخ . إن النقاد والصحفيين يشيرون دائماً إلى الفيلم الغربى الكلاسيكى ، ولكننى أشك فيما إذا كان هناك وجود لمثل ذلك . ولا شك فى أن أصول هذا النوع متنوعة جدًّا بحيث لا يمكن أن يكون هناك وجود لحاجة اسمها الفيلم الغربى الكلاسيكى وعلينا أن نسعد بذلك ، وهذا واحد من أسباب ثراء هذا النوع .

إن التقليد الأساسى الذى ينبثق منه الفيلم الغربى هو بدون أى شك الرومانسية . وبخاصة ما تضمنته قصة القرن التاسع عشر . وبالتالى ، فإن هذا الانسياق وراء جيمس فنيمور كوبر وقصصه المشهورة التى تكون صبغتها الأساسية بطلاً ينقذ غادة من الشرك من بين أيدى الهنود ثم يتخلى عنها لمنافس له من الطبقة العليا . وكانت أفلام الغرب الأولى تتسابق وراء ميلودراما المسرح . ويبدو أن نتيجة هذا الخليط هو أن هذا النوع كان مفتوحًا (وما زال كذلك) لحركة فى عدد من الاتجاهات وهذا مرهون بالشىء الذى يشد انتباه النظارة . وثمة ظاهرة من ظواهر هوليوود وهى ظهور النجم السينمائى .

وكان هذا فى غاية الأهمية بالنسبة لأفلام الغرب – فقد انتقلت بطولات « برونكو بيلى » سريعًا إلى وليم س . هارت وتوم ميكس وباك جونز وغيرهم . إن هذا التقليد واللباس والأمكنة الغربية ذات أهمية للبناء وإلا فإن النوع يتأرجح بين الكوميديا والجدية وبين الرومانسية والواقعية وبين مطالب الدراما وأحداث التاريخ . وحينما يبدو أن الجماهير تحب فيلمًا بعينه . فإن هذا التكوين الفيلمى يمكن تكراره مع بعض التغيير ، ومن هنا تبدأ دائرة فيلمية تأخذ طريق سيرها حتى تتفتح شهية الجماهير إلى شىء جديد .

وحينما يقل الاهتمام بأفلام الغرب ، كما كان يحدث من وقت لآخر ، كان النقاد يتنبئون بأن هذا النوع قد استهلك ، ومازلنا نسمع ذلك حتى يومنا هذا ، مع ازدياد التجاعيد فى وجوه أبطال هذا النوع من الأفلام الذين مازالوا على قيد الحياة ومخرجيها المخضرمين أمثال (جون فورد وراؤول وولش) الذين اضطروا إلى الاعتزال . ومع ذلك فإنه لما يستحق الذكر أن أول نبوءة عن موت هذا النوع من الأفلام أذيعت فى عام ١٩١٥ . ولكن أى إنسان وثيق الصلة بهذا النوع يعرف أن هذه الأفلام استمرت فى قوتها وشعبيتها بثلاثة مجالات جيدة التحديد التى كان يبحثها مؤلفو النصوص والمخرجون . ومن هذه فيلم الغرب الكوميدى ، وهذا مجال سيطر عليه بيرت كنيدى مخرج هوليوود الذى أخرج فيلم « يد الشريف المحلى » و « يد المقاتل المحلى » ثم جاء موضوع « نهاية الغرب » ، وهى فكرة كان رائدها سام بكنياه (مخرج فيلم اركب البلاد العالية وفيلم حفنة أشرار) . وقد أدت هذه الفكرة إلى ظهور عدد من الأفلام عن تلك النقطة فى الوقت الذى حلت السيارات فيه محل الخيول واختفت عمليات القتال بالمسدسات وحلت الحروب محلها . وأخيرًا هناك الواقعية المتزايدة والعنف فى هذا النوع ، وهذا واضح من استجابة هوليوود لمزاج المجتمع . إن الصحفيين يتحدثون الآن عن احتمال تجرد هذا النوع من الأفلام من قوته الرومانسية أمام الأفلام الجديدة

الممتعة ، ولكن الحقيقة هى أن هذا النوع يحتمل أن يبقى معنا ما دامت هناك سينما قصصية .

وثمة سبب لخوف النقاد فى فترة من الفترات من استهلاك هذا النوع وهو التكرار المستمر له واستغلال وسائل الإعلام لذلك . على أننا بدأنا نرى أن لانتشار هذه التجربة وذيوعها قوة كبيرة ، فالألفة التى أصبحت بيننا وبين الممثلين والموضوعات والتمثيل ومكان الفيلم الغربى تعنى أن الشكل قائم كنوع من اللغة المشتركة أو كقانون للسينما . إن صورة الرجلين اللذين يقفان مواجهين لبعضهما فى الشارع ، وهى الصورة التى بدأت بها هذا الحديث تعتبر مثلاً طيباً . وقد تسأل : « أليست الألفة تولد الاحتكار ؟ » « أليست المواجهة الفاصلة لم تعد شيئاً سوى كليشيه ؟ » ، حسناً إن كلمة « المواجهة الفاصلة » هى كليشيه حرفى ، ولكن هذا لا يعطينا فكرة شاملة عن وضع الفيلم الذى نتحدث عنه . إن الإمكانيات المرئية لتصوير معركة بالمسدسات فى الواقع غير محدودة ، كما يعرف أى شخص شاهد أفلامًا كثيرة « من أفلام الغرب » . وإذا كنا على مستوى الأسلوب الفيلمى ، فإننا ندرك أن الجوهر أو المعنى الحقيقى لذلك المشهد هو كيف يجرى تصويره . إن المخرج يمكن ان يجعل من ذلك المشهد ، وهذا أمر يعتمد على اهتماماته ووجهة نظره ، يتخذ شكل مصارعة للثيران (كما كان يفعل سيرجيو ليون) المخرج الإيطالى أو شكل رقصة باليه دامية (وأى إنسان شاهد فيلم حفنة أشرار يعرف ما أعنى) . والمهم هو أن مخرج الفيلم يستطيع أن يصوغ شكل النوع بطريقة يجعل الفيلم يحكى قصة . إن ما نكمله فى أيدينا الآن هو شىء من المادة التقليدية – مثل الإنجيل أو شكسبير الذى يقدم فورًا ثروة من المعانى للنظارة .

* * *

إذا كان لنا أن نفهم فيلم الغرب كلغة فنية ، فإننا يجب أن نعنى بما نراه فعلاً فى أفلام الغرب وهى تلك الأنماط المتكررة من الصور التى استمرت فى ذلك النوع

عشرات السنين . ونعمد عند مستوى معين إلى الحديث هنا عن الممثل والدور الذى يقوم به والشخصيات تتكرر فى أنواع الأفلام ، ويقدم فيلم الغرب الدليل على ذلك بمقاتليه من حملة المسدسات وسكان المدن والفرسان والهنود الحمر والعمد الضعفاء والرحل والكشافة الهنود الشداد وسيدات الشرق الوديعات ورجال الأعمال الفاسدين والسكارى الهزليين ، ولكى تعطى جميع هذه الأدوار – الكبيرة والصغيرة – فإن لهوليوود سلسلة من الممثلين الأخصائيين الذين تسند إليهم . والواضح أن ممثلين وممثلات يصبحون معينين مرتبطين بأنواع محددة من التجارب عند الجماهير – مثل شارلتون هستون الذى يعتبر جوهر الملاحم وكارى جرانت الذى يعتبر كوميديًّا خفيفًا . إننا حينما نشير إلى أفلام الغرب سرعان ما نفكر فى جون واين وروبرت ميتشوم وهنرى فوندا وجيمس ستيورات وجويل ماكريا وراندولف سكوت . وإلى وقت غير بعيد فإننا نذكر أيضًا كلينت إيستوود . إن هؤلاء الرجال يعتبرون « أيقونات » هامة للسينما وأصبحت وجوههم مثل علامات تميز معانى هذا النوع من الأفلام . لقد كان من المباهاة منذ وقت غير بعيد ازدراء نجوم السينما ، ولكن من الواضح الآن أن النجوم يمثلون أنماطًا ، لقد كان الممثلون منذ سنوات ينعون حظهم لوضعهم المنبوذ دون أن يدركوا تمام الإدراك قدرتهم على تمثيل دور شخصية من الشخصيات بفضل مظهرهم وشخصيتهم هو فى الواقع جوهر التمثيل على الشاشة . وفى مجال السينما يتم تكوين شخصية الممثل بواسطة أدواره السابقة مع وجود الممثل المادى (تذكر مشية جون واين المميزة ؟) التعبير المرئى المباشر . أن نخرج الفيلم ، بواسطة توزيع الأدوار بحكمة ، الثانوية منها والرئيسية ، يستطيع أن يثير جوًّا هائلا من المعانى .

إن ما أعنيه هو أن فيلم الغرب يمكن مقارنته مقارنة نافعة مع الأفلام التاريخية العظيمة مثل – الصلب والمادونا والطفل – التى تتيح لكل جيل من الفنانين عالمًا محددًا من الخيال ورنيناً رمزيًّا ينبغى استكناه حقيقته ودراسته وإعادة تفسيره . على أن

الممثلين السينمائيين وأدوار أفلام الغرب ليسوا سوى طبقة واحدة من المعانى هنا . وعلى المستوى الآخر ، هناك المميزات التقليدية لهذا النوع من الأفلام وهى اللباس التقليدى وأسلحته وخيوله وعربات النقل والبريد وقطارات السكة الحديد . ولعل ذكرياتنا الأولى عن هذا النوع مازالت تذكر البطل الحليق الذقن المرتدى الملابس البيضاء ويواجه خصماً شريرًا أسمر اللون ذا شنبٍ . إن هذه بالطبع هى تقاليد الميلودراما ، ولكنها تعتبر أيضاً دليلاً بسيطاً على كيفية تحول المكياج والملابس إلى مصدر للمعنى المرئى .

وثمة مستوى أخير للتقليد المرئى يتعلق بالمواقع والأماكن التى يتم فيها تصوير هذا النوع من الأفلام . وإذا كان بعض النقاد ينظرون إلى الفيلم الغربى على أنه الشكل المثالى للسينما ، فإن ذلك مرده بدون أى ظل من الشك إلى مناظره الطبيعية وخلفياته حيث يجرى تمثيل الدراما فيها . إن عددًا لا يعد ولا يحصى من أفلام الغرب تبدأ بمشهد شخص وحيد راكب حصاناً يمر عبر الصحارى أو البرارى أو فوق تلال وجبال . ويذهب بعض الثقات إلى حد القول بأننا هنا نمسك بجوهر النوع . وهو رجل وحيد مع مصيره ومع ذلك فإن هناك مشاهد متكررة فى هذا النوع . وعليه فإنه غنى بالقوة الرمزية : قوات المشاة وهى تبدو فى الأفق وبناء كنيسة وصلاة جنائزية بسيطة فى مقبرة موحشة ولعبة البوكر وهجوم الهنود ورحلة العربات المغطاة ، وعلينا بالطبع ألا ننسى صديقنا القديم وهو المقاتل بالمسدس . ولقد استمرت هذه المشاهد على مر السنين متميزة بمعنى شعائرى لأفلام هذا النوع بحيث أصبح المخرج لا يرى فيها أية قيمة . وعلى المخرج عند إخراج قصة معاصرة ، أو فيلم شخصى ، أن يبدأ من الصفر . أى أن يتولى بناء الشخصية والموقف والموضوع .. وخلاصة القول أن يخلق عالماً جديدًا . إن أنواع الأفلام مثل أفلام الغرب ورجال العصابات والأفلام الموسيقية أو الحربية (التى لا يبدو أن طرازها قد ذهب زمانه فى الوقت الحاضر) – فهذه تعطى للمخرج بداية قوية

لمشاهديه . وطالما أنه أصبح يوفر نوع التجربة العاطفية – الصراع والحركة والمشهد والعنف – فإنه يكون حرًّا فى صياغة الشكل وإخضاعه حسب احتياجاته .

* * *

وليس ثمة شك فى أن فيلم الغرب لا يتفق وذوق كل إنسان . أيمكن أن نتصور بيلى ويلدر ، وهو مهاجر أسترالى إلى أمريكا ومخرج كثير من الأفلام الكوميدية المتقدمة مثل فيلم « الشقة » وفيلم « البعض يفضلونها ساخنة » أن يتوجه إلى فلاجستاف بولاية أريزونا للقيام بإخراج مشهد فى موقع هناك ؟ أو الفريد هيتشكوك ؟ إذا كان ثمة مخرج مهتم أساسًا باستكشاف حالات الشعور السيكولوجية ، فإن أفلام الغرب لن تكون الشكل المناسب له . وهذ النوع من الأفلام بدوره لا يعالج المشاكل الاجتماعية مثل التفرقة العنصرية . فهنا يوجد شكل يتعلق بالمدن مثل أفلام رجال العصابات التى تمضى كثيرًا فى معالجة مشاكل الماضى القريب . إننى أجرى بعض المقارنات هنا ، فهذان النوعان من الأفلام – أى أفلام الغرب وأفلام رجال العصابات يعتبران من أعظم اختراعات هوليوود – وهما يشبهان بعضهما البعض أكثر مما يختلفان ، وليس عرضاً مثلاً أن هذيْن الشكلين الأمريكيين الخالصين يكشفان عن اهتمام بالفرد والعنف والقانون والنظام . إن هذه المشاكل التى لابد أن تواجهها كل ثقافة من الثقافات ، تعتبر مشاكل ملحة جدًّا فى بلد ضخم ذى تاريخ وتقاليد قصيرة . وليس ثمة شك فى أن هذين النوعين ينطويان على سؤال وهو : هل يمكن جعل الأمريكيين اجتماعيين . وهل يمكن أن يصبحوا أعضاء مجتمع مع الاحتفاظ بالهوية الفردية ؟

إن هذيْن السؤالين فى حالة أفلام الغرب يبرزان ثروة المادة التاريخية التى تحكى قصة النوع . فالتحرك الفعلى نحو الغرب من جانب المستوطنين استمر أكثر من قرن من الزمان ، ولكن هوليوود لا تعترف بتلك الحقيقة . إن الغالبية العظمى من أفلام الغرب قد أعدت فى فترة صاخبة بين عامى ١٨٦٥ و ١٨٩٠ ، أى قبيل إغلاق الحدود

الأمريكية وهذه اللحظة القصيرة فى تاريخ الولايات المتحدة هى التى تقدم هذا الشكل بجميع موضوعاته التقليدية : أى الأيام الأخيرة للحرب الأهلية وازدهار عمل المناجم ومد خطوط السكة الحديدية الفرسان والحروب الهندية وطرد المواشى ومجىء المزارع والراعى وأعمال رجال الغرب الأشرار .

* * *

إن ماضى هوليوود يقدم دليلاً كبيرًا على الطريقة التى استسلم بها المخرجون إلى هذه المادة والبحث عن الموضوعات وتشكيلها والعمل الدرامى الذى يشغلهم .

إن اسماً واحدًا بالطبع – وهو جون فورد – يسيطر على هذا النوع . ويعتبر فورد أعظم مخرج فى أمريكا ، ومن الشخصيات المحترمة فى عالم السينما . بدأ عمله السينمائى فى عام ١٩١٤ وامتدت حياته العملية فى هذا الحقل نصف قرن من الزمان ويغطى فى الواقع تاريخ الفيلم نفسه فى عصر السينما الصامتة وعصر السينما الناطقة وادخال اللون والشاشة الواسعة . ولقد مر فورد فى خلال هذه التطورات بخطوات واسعة ترك خلالها بصمته بأسلوبه التصويرى على حوالى ١٣٠ فيلماً ، ومن بينها أفلام رائعة حصل بواسطتها على أعلى جوائز التكريم من هوليوود منها أفلام « المخبر » و « كرمات الغضب » وفيلم « مارى أوف أسكتلنده » وفيلم « الوادى الأخضر » وفيلم « الرحلة الطويلة إلى الوطن » وفيلم « سفر لينكولن الشاب » وفيلم « طريق التبغ » ، ومع ذلك ، فإنه وإن كان فورد قد أخرج كل أنواع الأفلام ، فإننا دائما نربط اسمه بأفلام الغرب ، وجدير بالذكر أن نصف الأفلام التى أخرجها كانت عن الغرب ، ومن روائع أفلامه هذه « الحصان الحديدى » و « مركبة السفر » و « عزيزتى كليمنتين » و « قلعة الأباش » و « ذات الشريط الأصفر » و « ربوجراند » و « الباحثون » و « الرجل الذى قتل ليبرتى فيلانس » و « خريف شابان ، وقد وجد فورد فى هذه الأفلام الإطار المثالى للتعبير عن رؤيته الشاعرية لأمريكا .. الأمة الجديدة التى ظهرت من أرض متوحشة وبثمن باهظ .

يعتبر فيلم « مركبة السفر » من إخراج جون فورد « علامة بارزة فى إنتاج أفلام هوليوود . وقد أتيح هذا الفيلم فى عام ١٩٣٩ ، ورفع أفلام الغرب إلى مستوى فنى أعلى وأصاب نجاحاً واسع النطاق . وفى هذا الفيلم حقق جون واين الشاب الذى يرى هنا فى مشهد مع كلير تريفور ، نجاحه الكبير فى دور رينجو ، الخارج على القانون الذى أسىء فهمه .

إن مساهمة فورد فى إطار هذا النوع رائعة ، على أن كثيرًا من المخرجين الآخرين وجدوا هذا الشكل ذا قيمة لأعمالهم . ففى أفلام جذابة للغاية مثل « النهر الأحمر » و « ريو برافو » مثلاً استكشف هوارد هوكس ، المخرج المخضرم . عالمه الذى قوامه صداقة الذكور والنزعة التخصصية والمهنية . أما بود بويتشر من ناحية أخرى فقد استخدم هذا النوع من الأفلام للتعبير عن افتنانه بفكر الإنسان فى مواجهة الموت « وهو موضع مناسب لمصارع ثيران سابق ، ومن بين أفلام بويتشر « سبعة رجال من الآن » و « ت الطويل » و « الراكب الوحيد » وثمة ثلاثة من أفلام رائعة أخرجها أنتونى مان وهى « وينشستر ٧٣ » و « رجل الغرب » و « رجل من لارامى » وهذا المخرج يركز اهتمامه على موضوع غريب مؤثر هو موضوع قتل الأخ لأخيه أو أخته .

إن قائمة أسماء المخرجين الذين عملوا فى حقل هذا النوع من الأفلام لا تنتهى ومنهم راؤول والش وروبرت الدربتش ، وآرثر بن ، وسام بكنباه – وقد وجد هؤلاء المخرجون وكثيرون غيرهم من المخرجين فى الغرب أرضاً خصبة لأفكارهم وتصوراتهم . أما نحن ، معشر المشاهدين فإنه لا يسعنا إلا أن نأمل فى أن يستمر هؤلاء الرجال ، ومن يأتون بعدهم ، فى السير على هذا النحو حتى يبقى هذا التقليد الفنى الرائع الذى بدأ منذ وقت طويل بظهور فيلم « سرقة القطار الكبرى » مصدرًا يعول عليه للأنشطة الترويحية وإثرائها .